كتاب الصلاة

كتاب الصلاة

حكمة مشروعية الصلاة

إن الصلاة من أجل الأذكار وأفضل الطاعات وهي منتهى الخضوع والعبودية فيتمثل فيها عظمة الخالق وذل المخلوق ، وقد جمعت فنوناً من العبادة فهي تشتمل على التكبير والقراءة والقيام والركوع والسجود والذكر والقنوت والدعاء فلذلك كانت الركن الثاني بعد الإيمان .

والأصل في مشروعية الصلاة وكل عبادة أخرى إما القيام بشكر المنعم على ما أنعم وإما أداء الخدمة والعبودية وإظهار التواضع والذلة وقد اشتملت الصلاة على كل منهما فمن الحكم الجليلة أن الصلاة وجبت شكراً للنعم العظيمة منها : نعمة الخلقة حيث كرم الله النوع الإنساني بالتصوير على أحسن صورة وأحسن تقويم حتى لا نرى أحداً يتمنى أن يكون على غير هذه الصورة قال تعالى : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ وقال أيضا : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ومنها : نعمة سلامة الجوارح عن الآفات إذ بها يقدر على إقامة مصالحه ، ومنها : نعمة المفاصل اللينة التي بها يقدر على استعمال جوارحه في الأحوال المختلفة ؛ أعطاه الله ذلك كله إنعاماً محضاً من غير أن يسبق منه ما يوجب استحقاق شيء من ذلك فأمرنا باستعمال هذه النعم في خدمة المنعم شكراً لما أنعم إذ شكر النعمة استعمالها في طاعة المنعم . ثم الصلاة تجمع استعمال جميع الجوارح الظاهرة من القيام والركوع والسجود والقعود ووضع اليد

موضعها وحفظ العين وكذلك الجوارح الباطنة من شغل القلب بالنية وإشعاره بالخوف والرجاء وإحضار الذهن والعقل بالتعظيم والتبجيل ليؤدي كل عضو شكر الإنعام به ومن الحكم أيضاً : أن الصلاة طاعة للرب جل جلاله وطاعة المولى على عبده لا تكون الا فرضاً إذ التبرع من العبد على مولاه محال . والعزيمة شغل جميع الأوقات بالعبادات بقدر الإمكان الا أن الله تعالى بفضله وكرمه جعل لعبده أن يترك العبادة في بعض الأوقات رخصة منه تعالى .

يحقق ما ذكرنا ان العبد لابد له من إظهار سمة العبودية ليخالف به من استعصى مولاه وأظهر الترفع عن عبادته .

وفي الصلاة : إظهار سمة العبودية لما فيها من القيام بين يديه تعالى وتحنية الظهر له وتعفير الوجه بالأرض والجثو على الركبتين والثناء عليه وغير ذلك **ومنها** : أنها مانعة للمصلي عن ارتكاب المعاصي لأنه إذا قام بين يدي ربه خاشعاً متذللاً مستشعراً هيبة الرب جل جلاله خائفاً تقصيره في عبادته كل يوم خمس مرات عصمه ذلك من اقتحام المعاصي وذلك قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ **ومنها** : أنها جعلت مكفرة للذنوب والخطايا والزلات والتقصير إذ العبد في أوقات ليله ونهاره لا يخلو من ذنب أو خطأ أو تقصير في العبادة وهذا قوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

حكمة تعدد الفريضة

وتخصيصها بالأوقات المعروفة

إنما تعددت الفريضة في اليوم والليلة ليبقى العبد متصلاً بمولاه مستمراً

على خدمته فيستمر على مراقبته تعالى والخشية منه ، فإن العبد إذا وقف بين يديه تعالى خمس مرات في اليوم والليلة وتذكره في كل مرة وعلم أنه تعالى محيط بسره وعلانيته وأنه محاسبه على الصغير والكبير فلا ريب أن ذلك يبعثه على إقامة الحدود وأداء الحقوق وتجدد الخوف من عقابه والطمع في ثوابه حتى إذا ألم بسيئة بين ذلك سارع إلى التوبة وطلب المغفرة .

أما تخصيصها بالأوقات الخمسة فإنها أوقات العمل والنشاط فتؤدى فيها العبادة على الوجه الأكمل ولأنها أعظم رياضة بدنية تجدد القوة والنشاط وتزيح الكسل والخمول فالصلاة شرعت لفوائد ترجع إلى الروح والجسم فهي صحية كما هي شرعية يشهد بذلك أعداء الدين وأهل العلم الحديث فإنهم أثبتوا أنها حركات رياضية غير عادية منظمة تفوق جميع الأعمال الرياضية الأخرى بنظامها وسرعة التنقل فيها بين قيام وقعود وركوع وسجود خصوصاً وقت الفجر فإن الحاجة فيه شديدة إلى الرياضة لدفع النوم والكسل فيبدأ أعماله اليومية بالشكر على نعمة السلامة في مرقده والبعث من مضجعه ثم يأخذ في أسباب السعي والجد حتى إذا انتصف النهار أخذ مكانه ليستريح فيقوم بشكر نعمة التوفيق على السعي فإذا دخل وقت العصر وعاوده النشاط أخذ يطلب التوفيق في تمام ما شرع فيه من الأعمال اليومية فيقوم بشكر ذلك ثم يؤدي المغرب حيث أدبر النهار وأقبل الليل ليكون وتر النهار وأول عهده بالليل الذي هو وقت سكون وراحة ثم يؤدي العشاء شكراً للنعم التي ترادفت عليه في يومه فيختتم بها الأعمال اليومية كما ابتدأها بالعبادة ليكون ذلك كفارة لما بينهما .

حكمة تكرار السجود

شرع السجود مكرراً إشارة إلى الكونين ، فالسجدة الأولى تشير إلى أنا خلقنا من الأرض والثانية تشير إلى أنا سنعود إليها يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ وفي تكراره إرغام الشيطان وإحراج له فإنه أمر بسجدة واحدة فأبى فنحن نسجد سجدتين زيادة في التعظيم وقطعاً لطماعية الشيطان .

حكمة عدد الركعات

شرعت الصبح ركعتين لأن السنة فيها طول القراءة فأقيم طول القراءة مقام ركعتين أخريين كما أقيمت الخطبة في الجمعة مقام الركعتين الأخريين ولضيق وقتها مع بقاء آثار الكسل . وإنما لم تجعل المغرب ركعتين مع ضيق وقتها أيضاً لأنها وتر النهار وكان كل من الظهر والعصر أربعاً لطول وقتهما ولكونه وقت النشاط والعمل ، وكانت العشاء أربعاً لطول وقتها واختتام الأعمال بها ، فمجموع الركعات المفروضة سبع عشرة ركعة وإنما كانت كذلك لأن المعتاد في ساعات اليقظة سبع عشرة ساعة فكل ركعة تقوم بشكر ما يقع في الساعة من الأعمال .

حكمة الأذان والاقامة

شرع الأذان للإعلام بدخول أوقات الصلوات الخمس ، وتنبيه المصلين إلى الاجتماع في وقت معين لحضور الجماعة . وسبب مشروعيته : نزول الملك ورؤيا جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن

زيد وعمر رضي الله عنهما وذلك أن المسلمين لما قدموا المدينة كانوا يجتمعون ويتحينون الصلاة وليس لديهم أمارة تدل على دخول وقت الصلاة ولهم من أعمالهم ما يلهيهم عن ذلك وتكلموا في إتخاذ الناقوس فحدث بعد ذلك أن جاء عبد الله بن زيد الأنصاري إلى النبي ﷺ وأخبره بما وقع له في الرؤيا وهو أن ملكا نزل عليه وعلمه الأذان والإقامة فقال النبي عليه السلام علمها بلالا وجاء بعده عمر يجر رداءه فقال والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما رأى فقال الرسول ﷺ : فلله الحمد ! .

فقد شرع الأذان للإعلام وحث الناس على المبادرة إلى ما فيه خيرهم وفلاحهم ولذلك كان من سنن الدين وشعائر الاسلام .

ولما كان الفجر وقت نوم وغفلة زيد بعد فلاحه الصلاة خير من النوم مرتين وكذلك شرعت الإقامة لزيادة التنبيه والإعلام واستنهاض همم الحاضرين وتنبيه الغافلين وإسماع من لم يكن سمع من قبل وزيد بعد فلاحها قد قامت الصلاة إيذاناً بالقيام إليها والشروع فيها .

حكمة صلاة الجماعة

إن التجمع على هدف سام هو روح التضامن والتآخي بين الجماعات والأمم وبه ويحصل التعارف والتآلف بين الأفراد ، فإذا اجتمع المسلمون في اليوم خمس مرات واتجهت قلوبهم إلى مقصد واحد هُو أداء العبادة والطاعة ووقف الرئيس والمرؤوس والسيد والمسود والرفيع والضعيف في صعيد واحد – كان ذلك وسيلة إلى قبول عبادتهم جميعهم ، يقبل المفضول ببركة الفاضل وبه تقوى الرابطة بينهم ويحصل التفاهم والتناصح

ويتعلم جاهلهم من عالمهم ويأخذ قويهم بيد ضعيفهم ، وبها يتمكن الإمام من تفقد قومه والسؤال عمن غاب منهم .

وبالجملة فالجماعة مدرسة الأخلاق والآداب وأكبر مرب للنفوس فإن الفضائل والأخلاق العالية متفرقة في الأفراد والمرء مرآة أخيه فبكثرة الاجتماع تتمثل الفضائل أمام الأعين فإذا وجد الانسان في نفسه صفة نقص انسلخ منها وتناساها وإذا كانت تنقصه صفة كمال تخلق بها وادعاها فتصفو المعاشرة وتطيب الحياة وتنال السعادة .

حكمة مشروعية الوتر والنوافل

شرع الوتر ليكون آخر صلاة الليل وتختتم به النافلة ، ولذلك استحب تأخيره إلى آخر الليل لمن يثق بالانتباه والله تعالى يحب الوتر في كل شيء لأنه صفته تعالى فحسن اختتام الأعمال به ليكون رمزاً إلى الوحدانية .

وأما السنن والنوافل فإنها شرعت لتكملة الفرائض وجبراً لما عساه يقع فيها من تقصير أو غفلة ، وشرعت أيضاً لقطع طماعية الشيطان في الفريضة فان العبد إذا واظب على السنة لا يمكن الشيطان أن يأتيه من طريق الفرض وهو محافظ عليها فيهاجمه من طريق السنن والنافلة حتى إذا ظفر به فيها أخذ يهاجمه من طريق الفريضة وفيها التعود على الطاعة وزيادة الثواب .

حكمة سجود السهو

وشرع سجود السهو جبراً لما يقع في الصلاة من الخلل والنقص الذي لا تبطل به الصلاة فيمكن ترقيعها وجبرها بالسجود فلا تجب عليه إعادتها .

حكمة سجود التلاوة

إن القرآن الكريم عرض بالكفار وحكى ما وقع منهم من الاستنكاف عن طاعة الله والسجود له فشرع سجود التلاوة اظهاراً لمخالفتهم وانقياداً له تعالى وامتثالاً لأمره .

حكمة تغيير الأحكام للمسافر

إن السفر من العوارض غير المألوفة للإنسان تعرض فيه الآلام والمشقات وتهجر فيه الأوطان والخلان وهو كما روي قطعة من العذاب ، لذلك بدل الله فيه كثيراً من الأحكام إلى يسر وتخفيف **فمنها** : قصر الفرض الرباعي للمسافر فإنه يؤديه ركعتين تيسيراً عليه ودفعاً للحرج عنه . ولم تقصر المغرب لأنها لا نصف لها ولكونها وتر النهار . قالت عائشة رضي الله عنها فرضت الصلاة في الأصل ركعتين إلا المغرب فانها وتر النهار ثم زيدت في الحضر وأقرت في السفر . وقصر الصبح يؤدي إلى عدم النظير لأنه ليس لنا فريضة على ركعة واحدة .

ومن أحكامه : حل الفطر في رمضان للمسافر وعدم وجوب الجمعة عليه وجعل مدة مسح الخف ثلاثة أيام لما يلزمه عادة من الأهوال والمشقات . لا يقال إن العلوم الصناعية والاختراعات الحديثة ذللت جميع العقبات أمام المسافر وأزالت عنه المشقات وحولتها إلى ملاذ ومناظر جميلة سواء في ذلك البر والبحر . لأننا نقول نعم لا ننكر أن العلم الحديث أحدث تغييراً جوهرياً في الأسفار وأوجد اتصالاً تاماً بين الممالك والبلدان وأصبحت المسافات التي كانت تقطع في الأيام والأشهر تقطع في بضع ساعات قليلة تمر عليه وهو جالس على الطنافس والوسائد يقدم اليه طعامه

وشرابه على أتم نظام وأكمل ترتيب وأمامه الصهاريج والحمامات وإلى خلفه بيوت الخلاء وقضاء الحاجات كل ذلك حاصل ولكن السفر والاغتراب ومفارقة الأهل والأحباب مظنة الوحشة والمشقة وهي غير منضبطة فأنيط الحكم بالظاهر الغالب .

حكمة مشروعية الجمعة

إن الجمعة من أيام السرور ومن شعائر الإسلام شرعت لما فيها من الفوائد الاجتماعية والأخلاقية وقد سبق الكلام عليها في مشروعية الجماعة . وهي تفارق الجماعة في أنها تؤدى بجمع أعظم حتى كانت الجماعة شرطاً فيها وقد جعلها المولى سبحانه من أيام الإحسان التي يتجلى فيها على عبيده ويقبل فيها الأعمال ويضاعف الأجور يشير إلى شرفها وفضلها قوله عليه السلام : « سيد الأيام يوم الجمعة » لهذا اتخذها المسلمون عيداً لهم يغتسلون لها ويمسون الطيب ويؤدون صلاتها بجمع عظيم يشهده جميع المكلفين من أهل البلدة وشرعت الخطبة لها لسماع الوعظ والإرشاد والتذكير بالدعاء للمسلمين وذلك لأن القلوب تصدأ وتظمأ فتحتاج إلى ما يجلو صدأها ويروى ظمأها من آيات الوعظ والتذكير فشرعت الخطبة في كل اسبوع في هذا الجمع العظيم لتكون جلاء للقلوب وشفاء من داءاتها وأمراضها و لم تشرع في أقل من ذلك دفعاً للمشقة والحرج ولم تزد على ذلك لئلا يطول العهد بالتذكير .

حكمة مشروعية العيدين

كان للجاهلية يومان من أعيادهم يلعبون فيهما فلما جاء الاسلام

أبدلهما بعيد الفطر والأضحى . أما عيد الفطر : فشرع قياماً بشكر نعمة التوفيق على أداء الصيام والقيام واستنزالا للاحسانات الإلهية والفيوضات الربانية ، وأما الأضحى : فإنه أعظم أعياد المسلمين تترادف فيه النعم وتتضاعف فيه المسرات ؛ شرع شكراً للنعم الجليلة منها : نعمة نزول الفداء ففي مثل هذا اليوم منَّ الله تعالى على إبراهيم عليه السلام باستبقاء مهجته وفلذة كبده وعلى إسماعيل أو إسحاق بنزول الفداء وحقن ذلك الدم الطاهر والغصن الرطب بعد صبرهما على قضاء الله وبلائه ومنها : نعمة اجتماع المسلمين عند بيته الحرام لأداء الحج والمناسك ومنها : تلك الذكرى التي يتلج لها كل قلب فيه ذرة من الإيمان ذكرى قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ الآية . فقياماً بشكر تلك النعم واستنزالاً لإحساناته تعالى العامة شرع العيدين الفطر والأضحى . وبالجملة فالعيد كالجمعة من معالم الدين ومجامع السرور يجتمع فيه عامة المسلمين وخاصتهم في ضيافة الله تعالى على موائد كرمه وإحسانه تبتهج فيه عامة الأمم الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها بإطعام الطعام وصلة الأرحام وإراقة الدماء تقرباً إلى الله تعالى قلوبهم مفعمة بالسرور ووجوههم متهللة باشة تعلوهم الزينة وتحفهم العناية وتحييهم الملائكة مكبرين مهللين فرحين مستبشرين وشرعت فيه الجماعة والخطبة لما تقدم في الجمعة .

حكمة صلاة الخسوف والكسوف

خلق الله الشمس والقمر لإضاءة العالم وهدايتهم في أوقات السعي والعمل – إلى السبل فتنتظم أعمالهم وتنقلاتهم وأسفارهم براً وبحراً ، وهما آيتان من آيات الله تعالى ينكسفان لتخويف الناس من عذابه تعالى

إياهم بإدامة هذا الحال وإرجاعهم عن غيهم فتنزعج نفوسهم ويلجئون إليه تعالى ليكشف عنهم الضر والبلاء ويفزعون إلى الصلاة والدعاء حتى تنجلي الشمس أو القمر وقد كسفت الشمس في عهد رسول الله يوم مات ولده إبراهيم فقال الناس انما كسفت لموته فقال ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم شيئاً من هذه الأهوال فافزعوا إلى الصلاة »[1].

حكمة الاستسقاء

الاستسقاء طلب الماء من السماء لأن به حياة الحيوان والانسان وبه إنبات الزرع وإدرار الضرع وبه التطهير والتنظيف ، فإذا حبس الله القطر عن قوم وجفت أوديتهم فقد حبست عنهم الرحمة وجف الزرع والضرع وهلك الحيوان والإنسان فشرعت الصلاة والدعاء والتضرع إليه سبحانه وتعالى في هذه الحالة لاستنزال الرحمات ودفع المضرات وإنقاذ الحيوان من الهلاك لأنها أدعى إلى الاجابة[2].

---

(١) الكسوف والخسوف يطلق على الشمس والقمر جميعا وإن كان في أصل الوضع اللغوي : الكسوف للشمس والخسوف للقمر والصلاة لهما سنة يصلي فيها ركعتين في كل ركعة قيامان يطيل فيهما وركوعان يطيل التسبيح فيهما دون السجود وتستحب الجماعة في صلاة الكسوف ، وينادى لها : « الصلاة جامعة » ويخطب الإمام بعد الصلاة خطبتين كخطبتي الجمعة لفعله ﷺ رواه مسلم وفيه : « قام فخطب فأثنى على الله تعالى . إلى أن قال : يا أمة محمد هل من أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ألا هل بلغت » وينبغي أن يحرضهم على البذل والصدقة ويحذرهم الغفلة والاغترار .

ويستحب الجهر بالقراءة في خسوف القمر والإسرار في كسوف الشمس جاءت بذلك السنة .

(٢) الاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند الحاجة وصلاته سنة مؤكدة خرج رسول الله ﷺ يستسقي فحول إلى الناس ظهره واستقبل القبلة وحوّل رداءه » رواه مسلم

ويعظهم الإمام قبل الخروج ويحرضهم على التوبة ويذكرهم بالعواقب ويأمرهم بالصدقة وأنواع البر وبالخروج من المعاصي ، فإن هذه الأمور سبب انقطاع الغيث ونضوب العيون وجرمان الزرق ، وسبب غضب الرب سبحانه وإرسال العقوبات من الخوف والجوع ونقص الأموال والثمرات بل سبب تدمير أهل ذلك البلد قال الله تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ ويأمرهم بصيام ثلاثة أيام متتابعات ثم يخرج بهم في اليوم

حكمة مشروعية صلاة الخوف

شرعت صلاة الخوف عند حضور العدو لاحراز فضيلة االجماعة خلف الرسول أو خليفته أو أمير الجيش فيجمعون بين إحراز هذه الفضيلة وبين عمل الجهاد .

حكمة مشروعية صلاة الجنازة

إن الموت انقطاع من الخلق إلى الحق شرعت فيه الصلاة على الميت طلباً للمغفرة والرضوان واستنزالا للرحمات الآلهية على تلك الجثة التي أصبحت بحالة عجز كلي تتطلب المساعدة والإعانة ، فواجب الأخوة الإيمانية والانسانية يقضي علي كل مسلم أن يودع ذلك الراحل بالالتجاء إليه تعالى والتوسل إليه أن يكرمه في قبره ويكفر عنه أوزاره ويعتق رقبته من عذابه فحقيقة الصلاة عليه : دعاء واستغفار ولذلك لم يشرع فيها الركوع والسجود ، ولأنه يشبه عبادة الميت ، وشرع تغسيله وحمله ودفنه لإظهار كرامة بني آدم وفضلهم وتمييزهم عن باقي الحيوانات ولذلك شرعت هذه الأمور في حق الكافر أيضاً وإن لم يلاحظ فيه الوجه المسنون .

(تتمة) إنما كرهت الصلاة في الأوقات المعروفة لما في أدائها في تلك الأوقات من التشبه بعبّاد الشمس فإن الشمس تعبد في تلك الأوقات فأحدث ذلك نقصاً في الوقت .

الرابع وهم صيام لأن دعاء الصيام أقرب إلى الإجابة ويكونون في ثياب البذلة وهي الخدمة ليكونوا على هيئة السائل ، وعليهم السكينة في مشيهم وكلامهم وجلوسهم .. فقد روى أبو داود أنه عليه الصلاة والسلام : « خرج متبذلاً متواضعاً متضرعاً فلم يخطب خطبتكم هذه » .

فإذا خرج الإمام بهم صلى ركعتين كصلاة العيد ، ويستفتح في الأولى سبعا ، وفي الثانية خمسا ، ويجهر بالقراءة ، ثم يخطب بعدها مستحباً على شيء عالٍ مطيقين ويستفتح تلك الخطبة في إفتتاح الأولى تسعاً ، والثانية سبعاً .

وقد ذكر أن عمر رضي الله عنه لما استسقى لم يزد على الاستغفار ، فقالوا يا أمير المؤمنين : مارأيناك استسقيت فقال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ثم قرأ ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ الآيات والمجاديح : نجوم كانت العرب تزعم أنها تمطر فأخبر عمر رضي الله عنه ، أن المجاديح التي يستمطر بها هو الاستغفار لا النجوم .